المعالم الرئيسية فى الهجرة العربية إلى السودان

كان لظهور الإسلام آثار عظيمة ونتائج باهرة فى تاريخ العرب . فقد أمدت الرسالة المحمدية الأمة العربية بسياج دينى وفكرى ساعدهم على خلق وحدة وقتية عبرت عن نفسها بإنشاء امبراطورية عظيمة الشأن . وتحت راية الإسلام إندفعت الجيوش العربية صوب الشرق والغرب والشمال حتى بلغت أماكن لم تصلها الهجرات العربية التى كانت تنساب عبر الحدود من وقت لآخر . وقد ثبت أن الجزيرة العربية ذات الإمكانيات الغذائية والرعوية المحدودة ، كثيراً ما عانت من ازدياد فى عدد سكانها دفعهم فى دورات متباعدة للهجرة عبر حدودها طلباً للغذاء والكلأ[1]. ومن نافلة القول أن أضيف أن بعض القرائن ترجح أن عدداً من هؤلاء المهاجرين قد شقوا طريقهم إلى السودان، إما عبر البحر الأحمر ، أو عن طريق الديار المصرية قبل ظهور الإسلام وهما الطريقان اللذان سلكهما العرب مؤخراً[2] .

وقبل أن نمضى فى مناقشة العوامل التى ساعدت على هجرة العرب إلى السودان يحسن أن لاتعرض فى شىء من الإيجاز إلى وصف الحالة فى البلاد التى تقع جنوب أسوان والتى نسميها تجاوزاً فى حديثنا هذا « السودان » .

ففى الوقت الذى ولد فيه الرسول صلى الله عليه وسلم كانت تلك الديار تتكون أولا من أرض البجة وهى تشمل تقريباً موطنهم الحالى . وثانياً — ثلاث ممالك تركز نفوذها فى وادى النيل بين أسوان وسنار : أما المملكة الأولى نوباتياً أو المريس فسرعان ما اتحدت مع المملكة الثانية المقرة وكونتا مملكة النوبة وعاصمتها دنقلا وتمتد هذه المملكة حتى كبوشيه جنوباً ، والمملكة الثالثة هى علوه وعاصمتها سوبا[3]. أما السكان وخاصة الشماليين والشرقيين منهم فكانوا يمثلون فى الأصل ، جنساً أقرب إلى المصريين الأوائل دون سواهم ولكنهم تأثروا فى درجات متفاوتة بالقبائل شبه

---

(١) B. Lewis : *The Arabs in History*, London, 1958, pp. 23-4, 28.

(٢) Yusuf Fadl Hasan : *The Arabs and the Eastern Sudan from the seventh to the early sixteenth century*, Ph.D. thesis, London, 1964, pp. 77-80.

(٣) Ibid., pp. 63-67.

الزنجية التى نزحت من الجنوب[١] . وكانت الوثنية الدين الغالب فى معتقدات هؤلاء القوم ، ولكن ما أن اكتمل عقد القرن السادس الميلادى حتى توغلت المسيحية بين سكان مملكتى النوبة وعلوه وبين قليل من البجة ممن يسكنون الأطراف . فلما بدأت الفتوحات الإسلامية كانت المسيحية قد ضربت بجذور عميقة وصارت من مقومات النوبة الأساسية[٢] . ولعل هذه النقطة تفسر لنا شيئاً من الأسباب التى أدت إلى الصدام بين النوبة والمسلمين فاتحى مصر بقيادة عمرو بن العاص ؛ فقد إغتاظ النوبة على ما لحق باخوانهم فى الدين من هزيمة على يد المسلمين وأخذوا يتحرشون بالحدود المصرية . صحيح أن النوبة اعتادوا على غزو مصر كلما سنحت لهم الفرصة أو أحسوا ضعفاً فى الإدارة القائمة هناك . أما الآن فيبدو أن هذه الهجمات قد أخذت شكلا مزعجاً مما حدا بالخليفة عمر بن الخطاب أن يأمر واليه على مصر بغزو النوبة[٣] .

تضطرب المصادر العربية فى تحديد عدد الغزوات التى أرسلت لصد هجمات النوبة وطبيعتها . ولكن المرجح أن المسلمين بعثوا حملتين رئيسيتين عدا الغزوات ، الأولى منها فى ولاية عمرو بن العاص عام ٦٤١م ، والثانية فى أيام عبد الله بن سعد بن أبى سرح عام ٦٥١[٤].وقد وجدت الحملة الأولى مقاومة عنيفة من النوبة الذين اشتهروا باجادة رمى السهام حتى سماهم العرب « رماة الحدق » . وقد حكى شيخ حميرى ممن حاربوا النوبة فقال : « لقد شهدت النوبة مرتين فى ولاية عمرو بن العاص ، فلم أر قوماً أجد فى حرب منهم. لقد رأيت أحدهم يقول للمسلم أين تحب أن أضع سهمى منك ؟ فربما عبث الفتى منا فقال فى مكان كذ وكذا فلا يخطئه . . . وخرجوا إلينا

---

(١) انظر C.G. Seligman : "Some aspects of the Hamitic Problem in the Anglo-Egyptian Sudan", *Journal of Royal Anthropological Institute (J.R.A.I.)*, XLIII, 1913, pp. 593-610 ; A.M. Batrawi, "The racial history of Egypt and Nubia", *J.R.A.I.*, LXXVI, (1946), p. 155 ; U. Monneret de Villard, *Storia della Nubia Cristiana*, Roma, 1938, pp. 53-70.

(٢) J.W. Crowfoot, "Christian Nubia", *Journal of Egyptian Archaeology*, XIII, (1927), p. 142.

(٣) المسعودى : مروج الذهب ، باريس ، ١٨٦١ ، ج ٣ ، ص ٣٨ — ٣٩ .

(٤) ابن عبد الحكم : كتاب فتوح مصر وأخبارها ، ليدن ، ١٩٢٠ ، ص ١٦٩ـ١٧٠ و ١٧٤ .

ذات يوم فصافونا . نحن نريد أن نجعلها حملة واحدة بالسيوف فما قدرنا على معالجتهم رمونا حتى ذهبت الأعين . فعددت مائة وخمسين عيناً مفقوءة . فقلنا ما لهؤلاء خير من الصلح ، أن سلبهم لقليل وأن نكايتهم لشديدة . ولكن عمرو بن العاص رفض أن ينهى الحرب[١] . وظل العرب يجاهدون النوبة حتى عام ٦٥١ حين توغلت جيوش المسلمين بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح، فى حملتهم الثانية ، حتى دنقلا. وهنالك أشتبك الجيشان فى ملحمة رائعة لم تنته إلى نتيجة قاطعة . فقد أبدى النوبيون على عادتهم بسالة فائقة . ولكن ما أن ضربت كنيستهم بالمنجنيق ، الذى لم يعرفوه من قبل ، حتى دخل الرعب فى نفوسهم مما اضطر ملكهم قليدروت إلى طلب الصلح[٢] . وفى رأيي أن المسلمين مالوا إلى قبول ذلك الاقتراح بعد أن لاقوا قتالا شديداً وهم بعيدون عن ديارهم . ويثير هذا الاستنتاج نقطة هامة وهى أن المسلمين لم يقصدوا فتح بلاد النوبة بل أرادوا أن يضعوا حداً لهجماتهم .. وكانت النتيجة أن غزوهم دون أن يقضوا على سلطانهم قضاءا تاماً. وتؤكد هذه النتيجة الدراسات التفصيلية للروايات المختلفة لعهد النوبة .

وكان هذا العهد عبارة عن هدنة أمان أو معاهدة عدم إعتداء بتعبير حديث ، يلتزم بها الطرفان ، ويقوم على تبادل المنافع التجارية بين المسلمين والنوبيين . ولعل اشتهار هذا العهد فى المصادر العربية بالبقط[٣] يؤكد هذه الحقيقة . فكلمة بقط — وهو تعبير لاتينى (Pactum) — اشتهر فى الأمبراطورية البيزنطية ، التى كانت مصر جزءاً منها ، تعنى مجموعة الالتزامات المتبادلة وما يتبعها من مدفوعات[٣] . وهذا ما حدث . فبعد أن جعل عبد الله بن سعد بن أبي سرح أماناً وهدنة جارية بين المسلمين والنوبة عام ٣١ هـ /٦٥١/٢ ميلادية ، اتفق الطرفان على أن يدفع النوبة أربعمائة من أوسط رقيقهم كل عام على أن يتسلموا قيمة ذلك مواداً غذائية وثياباً كما نص العهد على أن يصرح للتجار المسلمين بدخول بلاد النوبة ، مجتازين غير

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ، القاهرة ، ١٩٣٨ ، ٢٣٨ — ٢٣٩ .

(٢) ابن عبد الحكم : نفس المصدر ، ص ١٨٨ ؛ المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، (الخطط) ، القاهرة ، ١٩٢٢ ، ج ٣ ص ٢٩٠ .

(٣) F. Lokkegaard, "Bakt", *Encyclopaedia of Islam 2*, I, p. 966.

مقيمين ، ويسمح للنوبة بالتجول فى مصر لنفس الغرض . هذا أهم ماورد فى معاهدة البقط[١] . وتؤكد المواد ماذهبنا إليه من قبل فى أن المسلمين كانوا يسعون فى ذلك الحين لتأمين حدودهم الجنوبية ، وقد وفقوا عرضاً فى فتح بلاد النوبة للتجار المسلمين دون أن يعترض طريقهم نوبى[٢] .

وكما يتوقع فان النوبة حاولوا التخلص من هذه الالتزامات الجديدة وعبروا عن ذلك أول الأمر بغزو صعيد مصر فى أواخر الدولة الأموية ، ولكن محاولاتهم هذه باءت بالفشل[٣] . وفى عهد الخليفة المهدى العباسى احتج النوبة بأنهم يلاقون صعوبة كبرى فى العدد المطلوب من الرقيق عاماً بعد عام . واستجاب المهدى لمطلبهم هذا ففرض عليهم تسليم الرقيق مرة كل ثلاثة أعوام[٤] . وتفيد بعض المصادر أن هذا التعديل قد تم فى عهد الخليفة المعتصم ، فقد ذكرت تلك المصادر أن النوبة قد تكاسلوا فى تسليم ما عليهم من بقط ، ويبدو أن الاضطراب الذى ساد مصر فى عهد الخليفة المأمون قد شجعهم على عدم الإيفاء بالتزاماتهم ، فأوقف المسلمون ما عليهم من مؤن، وأخذوا يتحرشون ببلاد النوبة . وناقش ملك النوبة زكريا بن يحنس وابنه جورج الأمر واتفقا على أن يزور الأخير الخليفة المعتصم فى بغداد طالباً تخفيف ما على النوبة من التزام[٥]. وكانت النتيجة شبيهة بالاتفاق الذى تم فى عهد المهدى. والمهم فى الأمر أن معاهدة البقط الأولى صارت ركناً أساسياً فى تكييف العلاقات بين المسلمين والنوبة لمدة ستة قرون دون تغيير جوهرى فى مضمونها .

وبالرغم من أن الاتفاق بين المسلمين والنوبة كان يحول دون توغل العرب واستقرارهم فى بلاد النوبة إلا أنهم لم يقفوا مكتوفى الأيدى إزاء هذا المنع . فبعد مقتل آخر خلفاء بنى أمية ، مروان بن محمد فى بوصير بمصر اتجه أبناء عبد الله

---

(١) ابن عبد الحكم : نفس المصدر ، ص ١٨٦ ؛ المقريزى : الخطط ، جـ ٣ ، ص ٢٩٠ — ٢٩٢ .

(٢) لتوضيح معاهدة البقط أنظر : Yusuf Fadl Hasan, op. cit., pp. 82-97.

(٣) Ibid., 98.

(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٢٣٩ .

(٥) ساويروس « ابن المقفع الأشمونى » : تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية المعروف بسير البيعة المقدسة جـ ١ ، مجلد ٢ ، ص ٢٠٢ ؛ المقريزى : الخطط ، جـ ٣ ، ص ٢٩٥ .

وعبيد الله ومعهما ألفان وربما أربعة آلاف من أتباعهما إلى بلاد النوبة بقصد الإقامة فيها حتى يتمكنوا من استرداد ملكهم على رواية اليعقوبى . ويبدو أن ملك النوبة الذى استضافهم كان على علم بانتقال الأمر من بنى أمية إلى بنى العباس ، فلم يتردد فى أن يطلب منهم الخروج من دياره. وهددهم قائلا «إن السودان كثير عددهم قليل سلبهم» فلما تبين لعبد الله بن مروان وأتباعه عداء الملك قرروا الذهاب إلى الجزيرة العربية وبعد عناء كثير فى بلاد البجه واستطاع عبد الله أن يعبر البحر الأحمر من ميناء باضع ومعه حوالى أربعين أو خمسين من اتباعه [١] وبالرغم من أن هؤلاء الهاربين السياسيين لم يستطيعوا البقاء فى بلاد النوبة إلا أن الطريق الذى سلكوه شهد هجرات كثيرة فى القرون اللاحقة . ومنذ عهد مبكر أخذ العرب يتدفقون نحو السودان . ففى الوقت الذى تذمر فيه النوبة مما يدفعون من رقيق لبيت المال ، اشتكى ملكهم للخليفة المأمون ، من بعض الأعراب لشرائهم أراضى رعاياه فى المنطقة الواقعة بين أسوان وبجراس — فرص[٢] . وهى منطقة لا يجوز للعرب الاستقرار فيها حسب منطوق معاهدة البقط . ولم تفد شكوى الملك شيئاً وظل الملاك العرب فى مكانهم . فلما زار الرحالة الفاطمى ابن سليم الأسوانى تلك المنطقة سنة ٩٦٩ وجد أن كثيراً منهم قد اختلطوا بالنوبة إلى درجة أن عدداً منهم قد نسوا اللسان العربى[٣] .

لم تكن مصر هى الطريق الوحيد الذى دخل منه العرب إلى السودان . فقد توغلت جماعات أخرى منذ السنوات الأولى للامبراطورية الإسلامية عن طريق البحر الأحمر . فقد ذكر المؤرخ الطبرى أن الصحابى أبا محجن الثقفى قد غرب إلى ميناء باضع (بالقرب من عقيق) سنة ١٦ هـ/ ٦٣٧ م[٤] . وذكر أن الخليفة أبابكر

---

(١) اليعقوبى : تاريخ ابن واضح ، ليدن ، ١٨٨٣ جـ ٢ ، ٤١٥ — ٤١٦ ؛ البلاذرى : أنساب الأشراف : مخطوط مصور ، دار الكتب المصرية ، تاريخ ٧٨٥٦ ، القاهرة ، جـ ٨ ورقات ٥٠٠ — ٥٠٣ ؛ ابن عبد ربه : العقد الفريد ، القاهرة ، ١٩٤٢ ، جـ ٤ ، ص ٤٧٠ — ٤٧٤ ؛ ساويرس : نفس المصدر ، جـ ١ مجلد ٢ ، ص ٢٠٠ — ٢٠١ .

(٢) المسعودى : نفس المصدر ، جـ ٣ ص ٤٢ — ٤٣ .

(٣) المقريزى : الخطط ، جـ ٣ ، ٢٥٢ — ٢٥٣ .

(٤) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، ليدن ، ١٨٧٩ ، جـ ١ ، ص ٢٤٧٩ — ٢٤٨٠ .

الصديق قد نفى جماعة من الأعراب إلى منطقة عيداب[١] . وفى ذلك العهد المبكر حدثت اشتباكات بين القراصنة الأحباش والمسلمين . فقد هاجم الأولون ميناء جده، فأرسل الخليفة عمر بن الخطاب حملة مكونة من خمس سفن لتأديبهم[٢] . وكرر الأحباش هجماتهم فى خلافة سليمان بن عبد الملك الذى أمر باحتلال مركزهم وهو يتكون من مجموعة جزر دهلك ، ليضع حداً لنشـــاطهم[٣] . وبذلك يكون هذا الاحتلال بمثابة رأس الجسر للنفوذ العربى فى الساحل الغربى . وقد اتخذ الأمويون ومن بعدهم العباسيون دهلك هذه منفى للعناصر العربية غير المرغوب فيها ، وكان من بين هؤلاء بعض الشعراء[٤] . ولا أريد أن أبالغ فى أهمية هذا الاتصال ، فدهلك هذه (أو مصوع) ، ميناء الجزء الشمالى من الحبشـــة ، وباضع وعيذاب مدخلان رئيسيان لأرض البجة والممالك المسيحية . وفوق هذا كان التجار العرب يمارسون نشاطهم الذى ورثوه عن أجدادهم دون توقف .

وفى الربع الأول من القرن الثامن الميلادى أخذ البجة يكثرون أذية سكان صعيد مصر . فأرسل عبيد الله بن الحبحاج ، عامل الخراج على مصر ، حملة انتصرت عليهم . وعلى أثرها فرض المسلمون على البجه أن يدفعوا سنوياً ثلاثمائة من الأبل ، وألا يعتدوا على المسلمين أو رعاياهم ، ولـكن أعطوهم حق التجول فى مصر[٥] . هذه المعاهدة شأنها فى ذلك كمعاهدة البقط ، ساعدت على وضع حد لهجمات البجه ، كما فتحت بلادهم للنفوذ العربى ، وأدت إلى خلق نوع من الاطمئنان هيأ سفر كثير من الحجيج إلى الحجاز عن طريق بلاد البجة . وفى سنة ٨١٤ سافر إبراهيم القفطى

---

(١) البكرى (عبد الله بن عبد العزيز) : الممالك والمسالك (مخطوط ، المتحف البريطانى ، لندن) ، ص ١٠ ب .

(٢) الطبرى : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٢٥٩٥ ؛
A. Kammerer : La Mer Rouge, l'Abyssinie et l'Arabie depuis l'antiquité, Le Caire 1929, I, Part III, p 322.

(٣) الفاكهى (محمد بن اسحاق) : كتاب المنتقى فى أخبار أم القرى ، نشر وستنفلد لايبزيق ، ١٨٥٩ ، ج ٢ ، ص ٤٤ ؛ القنائى (أحمد بن محمد) : كتاب الجواهر الحسان فى تاريخ الحبشان ، بولاق ١٣١٥ ، ص ١٥ .

(٤) الطبرى : نفس المصدر ، ج ٣ ، ص ١٥٥ ، ج ٢ ص ١٧٧٧ ؛ أبو الفرج الأصبهانى كتاب الأغانى ، القاهرة ، ١٩٢٧ ، ج ٤ ، ص ٤٥ ، ٢٣٩ ، ج ٧ ، ص ٥٦ .

(٥) ابن عبد الحكم ، نفس المصدر ، ص ١٨٩ .

حاكم قفط فى جماعة من أهله على نفس الطريق . وكان ابراهيم هذا خبيراً بتلك الديار عليما بمسالكها ، فتطير البجة منه وخافوا على سلامة وطنهم ، فأغروا زعيمهم محا ليسمح لهم بقتله[١] . وانتهت القصة بقتل ابراهيم هذا وجماعته فى ظروف غامضة ولم يسلم منهم إلا صبى استطاع أن يحمل الخبر لأهله فى قفط . فكتم أولئك الأمر حتى قدم محا واتباعه من البجة على عادتهم للتجارة ، فاعمل أهل قفط السيف فيهم . ورد البجة الصاع صاعين فهاجموا قفط وقتلوا عدداً من بنيها وسبوا سبعمائة من سكانها . وظل أهل قفط يطلبون العون من الوالى ثمانية سنوات حسوما ولكن دون مجيب . وجاء العون من حكم النابغى من قيس عيلان التى تسكن الحوف فى مصر ، وكان رجلا ثرياً فاضلا محباً للجهاد فى سبيل الله . فخرج حكم فى ألف من رجاله ودام على حرب البجة ثلاث سنوات حتى يسترد ما أسروه وزاد عليه[٢] . وتطوع هذا العدد من العرب ونزوحه من الحوف ، وهى من أكثر الأماكن رخاءاً فى مصر ، يدل على أن هناك دوافع عميقة حدت بهم ليقوموا لنصرة أهل قفط ، ويحاربوا البجه . وحقيقة الأمر أن الصلة بين العالم الإسلامى والسودان لم تبلغ درجة من الأهمية ، ولم يكثر ذكر تلك الصلات فى المصادر العربية إلا بعد أن ساء حال العرب فى الإمبراطورية الإسلامية عامة ، وفى مصر خاصة . وشرح هذه النقطة يتطلب شيئاً من الاستطراد .

ظل العرب طوال عهد الراشدين والعصر الأموى والحقب الأولى من الدولة العباسية يكونون أقلية مصطفاة فى مصر . فهم يمثلون طبقة المقاتلة والأرستقراطية الحاكمة . وكانوا يتسلمون رواتب سخية ويدفعون ضرائب بسيطة ، وحتى يحافظوا على مقدرتهم الحربية حرم عليهم اقتناء الأرضى والاشتغال بالفلاحة ، ومن ثم ظلوا يسكنون المدن . ولكن فى أواخر الدولة الأموية بدأت جماعات منهم تحترف الزراعة وتختلط بالمصريين ، وكان ذاك بداية للاستعراب وانتشار الإسلام فى مصر[٣] .

يصعب حصر العرب الذين دخلوا مصر ولكن الأرقام التى توردها المصادر

---

(١) ابن حوقل : نفس المصدر ، ٥١ — ٥٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١١ — ٥٢ .

(٣) Yusuf Fadl Hasan, op. cit., pp. 103-4.

العربية قد تفيدنا فى رسم صورة تقديرية . إذ تذكر المصادر أن عمرو بن العاص غزا مصر فى ثلاثة آلاف مقاتل ، وأمده الزبير بن العوام بخمسة آلاف وفى رواية أخرى باثنى عشر ألفاً . وأن عبد الله بن سعد بن أبى سرح غزا النوبة فى عشرين ألف مقاتل ! وقد بلغ عدد العرب المقيمين فى الفسطاط فى خلافة معاوية بن أبى سفيان أربعين ألفاً ، وفى اسكندرية عشرين ألفاً أخر(١).

واستمر العرب يفدون لمصر لأسباب مختلفة منهـا كثرة تغيير الولاة الذين اعتادوا على اصطحاب أفراد من قبائلهم ليشدوا من أزرهم فى وظائفهم الجديدة . وقد ذكر أن عدد من تبع بعض الولاة بلغ ست آلاف أو عشرة أو عشرين ألفاً(٢) . فاذا تذكرنا أن ثلاثة وثمانين والياً تعاقبوا على مصر بين ولاية عمرو بن العاص الثانية وولاية عنبسة بن إسحاق الضبى آخر وال عربى تكونت لدينا فكرة عن عدد من هاجر فى مثل تلك الأحوال : كما شجع الأمويون هجرة القبائل القيسية ليقللوا من نفوذ القبائل اليمنية . وقد استقرت جماعات من هؤلاء فى مصر حيث مارست الزراعة(٣) .

وبسقوط الدولة الأموية انتهت دولة العرب وقامت الدولة العباسية على تأييد الموالى وبعض العرب ، ومن ثم حاول العباسيون استرضاء تلك العناصر ، وحاولوا فى نفس الوقت أن يبرهنوا على عروبتهم فى كثير من أعمالهم . غير أن عوامل جديدة حالت دون ذلك ، فقد اعتمدت الدولة على الجند الخرسانى وهم مزيج من الفرس والعرب فقل اعتمادها على المقاتلة العرب ، وبذلك حرم العرب من كثير من امتيازاتهم . فأصبحت الرواتب مثلا تدفع للمقاتلة من العرب فقط ، لا للعرب جميعهم كما كان الحال فى أول الأمر ، وحتى هؤلاء فقدوا وظائفهم تدريجياً واحتلها الجنود الأتراك(٤) . فلما أحس العرب بهذا التغيير أخذوا يحترفون الفلاحة ، وظل

---

(١) المقريزى : الخطط ، ج ٣ ، ص ١٦١ ، ٢٦٠ ؛ البيان والإعراب عما بأرض مصر من الاعراب (البيان) ، تحقيق عبد المجيد عابدين ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ٩٥ .

(٢) S. Lane-Poole : *A History of Egypt in the Middle Ages*, London, 1901, p. 29.

(٣) المقريزى : البيان ، ص ٩٨ — ٩٩ ، ٦٦ — ٦٨ .

(٤) B. Lewis, *op. cit.*, pp. 80, 84, 92-3.

البدو على بداوتهم . ولكن جزءاً آخر ممن لم يعجبه الوضع آثر الهجرة لأطراف الإمبراطورية الواسعة . ومنذ ذلك الحين صارت كلمة عرب أو أعراب تطلق فى الغالب على البدو منهم .

أبدى العرب فى مصر استياءهم الشديد لهذا التحول فى سياسة الدولة . وكثرت ثوراتهم فى أول قرن للدولة العباسية . ففى سنة ٧٨٢ ثار دحيه وأعلن نفسه خليفة أموياً على صعيد مصر وأيده كثير من العرب . ولم تفلح الحكومة المركزية فى إخماد ثورته إلا بعد مجهود جبار عام ٧٨٦[١] . وفى عام ٨٠٢ أعلنت قبائل قيس العصيان ورفضت دفع الخراج[٢] . وقد تبع هذه الاضطرابات حروبات كثيرة بين هؤلاء العرب الذين أرادوا التمتع بخيرات الأرض التى يفلحونها دون دفع خراج عنها . ولم تهدأ الأحوال فى مصر إلا بقدوم الجيش الخراسانى بقيادة عبد الله بن طاهر سنة ٨٢٦ . فما أن بارح مصر إلا رفع العرب راية العصيان مرة ثانية . وفى سنة ٨٣١ أرسل الخليفة المأمون أخاه المعتصم بأربعة آلاف من الجند الأتراك ليفرقوا العرب الذين حاصروا الفسطاط نفسها . ولم يمض عام حتى اضطر الخليفة المباشرة الأمر بنفسه وكبح جماح العصاة . وغاية ما هناك أن هذه الحروبات قد بعدت الشقة بين العرب وحكام مصر[٣] .

فلما آل الأمر إلى الخليفة المعتصم كتب إلى واليه بمصر يأمره بإسقاط من فى ديوان مصر من العرب وقطع العطاء عنهم . ففعل ذلك[٤] . ويعد هذا القرار نقطة تحول خطيرة فى تاريخ العرب فى مصر . إذ يعنى أن الدولة قد زهدت فى خدمة المقاتلة من الأعراب واستبدلتهم بالجند التركى .

عرف العالم الإسلامى الترك منذ العهد الأموى ، ولكن المعتصم أكثر من

---

(١) ابن تغرى بردى (أبو المحاسن يوسف) : النجوم الزاهرة فى تاريخ ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ، ١٩٢٩ ، جـ ٢ ص ٤٩ ، ٥٥ ، ٦٠ — ٦١ ؛ المقريزى : الخطط (ط. القاهرة) جـ ١ ، ص ٣٠٧ — ٣٠٨ .

(٢) الكندى : كتاب الولاة وكتاب القضاة ، ليدن ، ١٩١٢ ، ص ٤٣ ؛ المقريزى ، الخطط جـ ١ ، ص ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ .

(٣) المقريزى : الخطط : ج ١ ، ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ .

(٤) ابن تغرى بردى : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٢٢٣ .

استعمالهم ، إذ اتخذهم حرساً له ، وعهد لهم بإخماد ثورة قيس فى مصر قبل أن يصبح خليفة . فلما آل الأمر إليه اعتمد عليهم كلياً لأسباب لا محل لذكرها هنا ؛ ولكن من المؤكد أن مهارتهم الحربية كانت تفوق مقدرة المقاتلة من العرب والجند الخرسانى فى ذلك الحين(١) . ومنذ ذلك التاريخ كثر استعمال الجنود الأتراك ، والجنود النوبيون بدرجة أقل .

ولم يمض قرار المعتصم دون احتجاج صارخ من العرب فى مصر ، فقد ثار يحيى بن الوزير الجروى فى جمع من لخم وجذام وأعلنوا العصيان حتى ترد لهم حقوقهم المغتصبة على حد تعبيرهم(٢) ، ولكن ثورتهم هذه لم تفد شيئاً : فقد اكتشفوا أنهم فقدوا مصدر رزق هام وبقى أمامهم أحد أمرين ، إما أن يستقروا ويختلطوا بالمصريين أو ينزحوا نحو صعيد مصر بعيداً عن سلطة الوالى ، حيث تسهل الثورة ضد الحكومة أياً كانت . ولعل مما زاد من حنق العرب أن الولاة بعد سنة ٨٥٢ صاروا تركاً .

وباختصار فإن السياسة التى اختطها المعتصم فى تجنيد الترك تعتبر فى نظرى العامل الأساسى الذى شجع العرب على الهجرة إلى السودان . فكلما زادت قبضة الأتراك على الحكومة والجيش فى مصر ، اضطر العرب إلى الهجرة نحو السودان . وقد بلغت قبضة الأتراك القمة فى العهد المملوكى .

والرأى عندى أن العرب منذ أوائل القرن الثالث الهجرى أخذوا يدخلوا السودان فى مجموعات صغيرة دون أن تسترعى انتباه أحد ، أو يسجل تفاصيلها التاريخ . وقد دفعتهم لذلك الأخبار التى سمعوها من التجار عن المراعى الشاسعة التى تقع جنوب بلاد النوبة . قد يقال إن الحدود بين مصر وبلاد النوبة يحرسها صاحب الجبل أو حاكم المريس الذى يقطن بجراش ، والذى يحول دون دخول أى شخص غير مصرح له بذلك(٣) . ولكن لنذكر أن هذه النقطة من الحدود يسهل تفاديها .

---

١ انظر Yusuf Fadl Hasan, *op cit.*, p. 109.

(٢) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٤ ؛ ابن تغرى بردى . نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٢٢٣ .

(٣) أبو صالح الأرمنى : تاريخ الشيخ أبو صالح الأرمنى ، اكسفورد ، ١٨٩٤ ، ص ١٢٠ ، المقريزى : الخطط ، ٣ ص ٢٥٣ .

ولقد استغل البجة انشغال حكام مصر فى أوائل القرن الثالث الهجرى بالفتن الداخلية وبدأوا يغزون الصعيد مرة أخرى . فبعث الخليفة المعتصم ، عبد الله ابن الجهم الذى هزم رئيسهم كنون بن عبد العزيز وفرض عليهم صلحاً لا يختلف فى مضمونه عن عهد عبد الله بن الحبحاب معهم ، بل يؤكد امتداد نفوذ المسلمين فى تلك الجهة . تنص المعاهدة باختصار على أن تكون بلاد البجة ومن فيها من أسوان إلى تخوم باضع ومصوع ملكا للخليفة . وأن يكون كنون بن عبد العزيز نائباً عنه ، وأن تدفع البجة مائة جمل أو ثلاثمائة دينار لبيت المال وألا يعترض البجة المسلمين الذين يسافرون أو يستقرون فى بلادهم بأذى . وألا يهدموا المساجد التى بناها المسلمون وأن يسمحوا بمال بيت المال بجمع الصدقات ممن أسلم . وأكدت المعاهدة السماح للتجار البجة بالدخول فى مصر[١] . لا أريد أن أطيل فى مناقشة هذه المعاهدة ، لكن من الواضح أنها وضعت الأساس لتجول المسلمين واستقرارهم فى حرية تامة (أكثر من ذى قبل) . والإشارة إلى وجود مساجد والحديث عن جمع الصدقة يدلان على أن العرب قد دخلوا فى أعداد كبيرة ساعدت على نشر الإسلام . ثم أن اسم رئيسهم كنون بن عبد العزيز يدل على أثر عربى . والجدير بالذكر أن تلك المعاهدة قد ترجمها إلى البجاوية عربيان أحدهما من جدة والآخر من قبيلة قريش ، ولابد أنهما عاشا فى تلك الديار حتى تعلما تلك اللغة »[٢] .

وفى أثناء حملة عبد الله بن الجهم تسامع الناس بوجود الزمرد والذهب فى أرض البجة[٣] ، فتدفق الناس فى أعداد كبيرة زهداً فى الحياة فى مصر ورغبة فى الثراء السريع .

ولا بد من وقفة هنا لنبين معالم هذه الهجرة ، فبالرغم من أن سياسة الدولة لم تعد تغرى كثيراً من العرب بالبقاء فى مصر ، إلا أن أسباباً اقتصادية بحتة دفعت بكثير من العرب ورعاياهم للتوغل فى السودان وهى باختصار تجارة الرقيق ، والعمل بالتعدين فى الصحراء الشرقية ، والاشتغال بالتجارة الهندية ونقل الحجيج وما صاحب الأخيران من تطوير للموانى .

---

(١) المقريزى : الخطط ، ج ٣ ، ص ٢٧٣ ـ ٢٧٥ .
(٢) المقريزى : المصدر السابق ، ج ٣ ص ٢٧٣ .
(٣) ابن حوقل : نفس المصدر ، ص ٥٣ .

ربما كان العامل التجارى هو السبب الرئيسى فى توغل العرب فى المقره وعلوه خلال القرون الإسلامية الأولى ، فكانوا يجلبون المواد الغذائية والثياب والخزف ويعودون بريش النعام والعاج والماشية والرقيق[١] . وكانت تجارة الرقيق تمثل جزءاً مهماً من ذلك النشاط ، وقد تزايد الطلب للرقيق فى العالم الإسلامى بعد أن قل الوارد من السبي . وكان جزء من هذا الرقيق يعملن جوارى أو حاضنات وبعضهم يعمل خدماً وعمالا[٢]. غير أن الأغلبية كانت تتخذ جنداً ، خاصة فى مصر بعد عهد أحمد ابن طولون الذى عين أربعين ألفاً منهم فى جيشه[٣] ، وازداد هذا العدد أيام الأخشيديين والفاطميين[٤] . ولم يكن هذا الطلب وقفاً على مصر وحدها ، بل كانت الحجاز سوقاً هاماً[٥] . وذكر الرحالة ابن بطوطه أنه رأى جارية نوبية فى بلاط خان التتر فى بلاد القرم فى أوائل القرن الرابع عشر[٦] .

أين موطن هؤلاء الرقيق ؟ من المرجح عندى أن الجزء الأكبر كان يجلب من البلاد التى تقع جنوب المقره وعلوه ، أى الجزء الغربى من بلاد السودان بمعناها العام. وكان التجار العرب يعتمدون على التجار المحليين فى اعتناء الرقيق[٧] .

ويهمنا أن نذكر فى هذا المقام أن تجارة الرقيق سهلت الهجرة العربية لسببين: أولا : بالرغم من أن معظم هؤلاء العبيد كانوا يجلبون من بلاد السودان بمعناها العام إلا أن الجزء الذى اشترى من المقره وعلوه قد حرم تلك البلاد من العنصر الشاب فيها (وهو النوع المرغوب فيه) ومن ثم قلل بمرور الزمن من فرصها لتحول دون توغل العرب مستقبلا . ثانياً : ساعد توغل التجار المسلمين فى زيادة معرفة

---

(١) ناصرى خسرو : سفر نامه ، القاهرة ١٩٤٥ ، ص ٤١ ، ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ليدن ، ١٨٨٤ ، ص ٧٦ Yusuf Fadl Hasan, *op. cit.*, p. 116.

(٢) ابن بطلان : رساله فى شرى الرقيق وتقليب العبيد ، القاهرة ١٩٥٤ ، ص ٣٧١ — ٣٧٨ .

(٣) المقريزى : الخطط (ط القاهرة ، ١٨٥٣) ج ١ ص ٣١٥ .

(٤) المقريزى : الخطط : ج ٢ ، ص٤٤ ، ابن ميسر : أخبار مصر ، القاهرة ١٩١٩ ، ج ٢ ص ٢٤ — ٢٥ ، Yusuf Fadl Hasan, *op. cit.*, pp. 119-126.

(٥) Ibid., pp. 126-7.

(٦) ابن بطوطة : تحفة النظار فى غرائب الأمصار ، باريس ١٨٩٣ ، ج ٢ ص ٣٩٤ .

(٧) أنظر Yusuf Fadl Hasan, *op. cit.*, pp. 121-123.

العرب بتلك البلاد : مسا لـكها ومراعيها . ولا شك أن هذه المعرفة أفادت المهاجرين كثيراً وفتحت أمامهم عوالم جديدة . وعلى ضوء ماحدث مؤخراً يبدو جلياً أن التجار قد عملوا بعد أن وسعوا نطاق التجارة ، كدعاة ومبشرين للاسلام ، وأنهم فى توغلهم وترحالهم الـكثير من منطقة لأخرى داخل السودان قد حملوا الدعوة الإسلامية إلى تلك المناطق .

كان لاكتشاف الزمرد والذهب فى الصحراء الشرقية أثر أخاذ على نفوس العرب فى مصر . فاندفعت جماعات منهم نحو تلك المنطقة التى أسموها « أرض المعدن » فى أوائل القرن التاسع الميلادى وكان مركزهم الرئيسى وادى العلاقى. ولـكن البجة الذين لم يشتهروا بالعمل بالتعدين طردوا العرب وقتلوا جماعة منهم ، وامتنعوا عن دفع الجزية وهاجموا الصعيد . وبعد تردد من حـكومة بغداد ، خوفاً من البجة وصحرائهم الموحشة ، عهد الخليفة المتوكل لمحمد بن عبد الله القمى بمحاربتهم[١] . واستعد القمى إستعداداً كاملا ويزعم الطبرى أن القمى سار فى عشرين ألف مقاتل من العرب الذين طردتهم البجة من أرض المعدن . ولا شك أن هذا عدداً كبيراً لا تحتمله حملة صحراوية[٢] : ومن المرجح أن عددهم ثلاثة ألف مقاتل من قبائل ربيعة ، ومضر ويمن بالتساوى كما ذكر ابن حوقل[٣] . وقد أرسل القمى الأطعمة فى سبع سفن أبحرت حتى مكان بالقرب من عيذاب . أما الجيش فبعد أن اخترق أرض المعدن ، قابله على بابا زعيم البجة الذى جعل يناوش المسلمين حتى ينفذ زادهم ويأخذهم دون مجهود . فلما علم البجة بوصول المراكب يئسوا من هلاك جيش القمى وبدأوا القتال . ولجأ المسلمون إلى خدعة ساعدتهم على النصر ، فقد ربطوا عدداً من الأجراس على رقاب الخيل فلما سمعتها إبل البجة وكانت ذعرة ألقت من تحمل وولت لا تلوى على شىء ، فتم النصر للمسلمين . والتزم البجة بدفع الجزية والسماح للعرب بالتعدين . وتأكيداً لهذا الإتفاق اصطحب القمى على بابا لزيارة الخليفة ببغداد وتقديم فروض الطاعة[٤] .

---

(١) الطبرى : نفس المصدر : ج ٣ ص ١٤٢٩ .

(٢) المصدر السابق : ج ٣ ص ١٤٣١ .

(٣) ابن حوقل : نفس المصدر ص ٥٣ .

(٤) الطبرى : نفس المصدر ج ٣٣ ص١٤٢ والبلاذرى : نفس المصدر : ص ٢٣٩ ؛ ابن حوقل : نفس المصدر ص ٥٣ .

وما أن استتب الأمن حتى تقاطر العرب نحو أرض المعدن زرافات ووحداناً . فجاءت قبائل من مضر وربيعة بن حنيفة من نجد ، على سبيل المثال لا الحصر، وسكنت وادى العلاقى[١] . ولعل خير مثال للهجرة العربية فى تلك الظروف نشاط عبد الله ابن الحميد العمرى[٢] ، الذى قدم مصر سنة ٨٥٥ ومنها اتجه نحو أرض المعدن بعد أن اشترى رقيقاً وحط رحاله بالقرب من معدن لمضر ، ثم فارقهم أثر خلاف لمعدن الشنكة ، الذى يظن أنه بالقرب من أم نبـــاردى أو وادى هدقليب [٣] ، ولـكن العمرى لم يجد ماء كافياً لعمليات التعدين فى ذلك المعدن ، فورد النيل ، ومنعه أهله منه شكا فى نواياه . فهاجم العمرى سكان شنقير ، وهى المنطقة التى تقع بين أبى حمد وبربر . وسبى منهم كثيراً وباعهم فى أسواق مصر . فكثر ماله ، وزاد سلطانه وأخذت القوافل ترد إلى معسكره محملة بالغذاءات . ولـكن زعامته لم تدم طويلا إذ دخل فى حروبات طويلة مع النوبة انتهت بانهزامه . فأثرت هذه الهزيمة على موقفه من حلفائه العرب ، فقد اتهمته سعد العشيرة بمأساة قيس عيلان . وأخيراً اضطر العمرى ليتجه شمالا وأن يعسكر بالقرب من أسوان .

فلما بلغ خبره أحمد بن طولون وكان جيشه يتكون من الترك والنوبة ، خافه ، وخشى أن يتعاون مع البدو الذين تكثر ثوراتهم فى الصعيد . وقرر أن يباغته ، فانتصر العمرى على جيش ابن طولون ، وقفل راجعاً إلى أرض المعدن . وهنالك بسط نفوذه على قبائل جهينه وربيعة وسعد العشيرة ، فعظم نفوذه واتسعت سلطته حتى ذكر أن ستين ألف جمل كانت تعمل فى حمل المؤن من أسوان لحلفائه ، عدا العير التى تجىء من عيذاب . وفى ذلك الحين فكر ابن طولون فى الإنتقام ، ولـكنه آثر السلامة إزاء تهديدات العمرى . ومن حسن حظ الطولونيين أن الحلف العربى الذى أنشأه العمرى فى أرض المعدن لم يدم طويلا ، نتيجة اختلاف بين الحلفاء .

---

(١) ابن حوقل : المصدر السابق ص ٥٣ ؛ اليعقوبى: كتاب البلدان ، ليدن ، ١٨٩١ ، ص ٣٣٤ .

(٢) المقريزى : المقفى (مخطوط ، المكتبة الوطنية ، باريس ، رقم Arabe 2144 ج ٤ ، أوراق ١٦٤ — ١٦٧ .

(٣) U. Monneret de Villard, *op. cit.*, p. 111.

والسبب المباشر لذلك ، أن إبراهيم المخزومى ، أخو العمرى من أمه ، قتلته جماعة من البجة ، فطلب من حلفائهم ربيعة أن تنصفه فرفضت . وآثرت مضر الحياد بينما عاداه بنو هلال وبنو تميم . وأخيراً تمكن العمرى فى جماعة من أنصاره أن ينتصر عليهم ولكنه لم يعش طويلا إذ اغتاله غلامان مضريان[١] .

لا نبالغ إذا قلنا إن العمرى قد قارب النجاح عندما أنشأ أول إمارة عربية فى شمال السودان . وضرب بنجاحه هذا مثلا لكثير من المغامرين والراغبين فى الهجرة ليحذوا حذوه . وتعكس الأخبار المفصلة التى سجلها اليعقوبى[٢] بعد عشرين سنة من موت العمرى ازدياد النشاط العربى فى أرض المعدن . وقد شمل هذا النشاط التعدين ، والتجارة ، ونقل المؤن .

وقد لعبت قبيلة ربيعة وحلفاؤها دوراً هاماً فى انتشار الإسلام والنفوذ العربى فى أرض المعدن . فبعد أن حاربت ربيعة العمرى ، تحالفوا مع البجة وتزوجوا منهم . واستطاعوا بفضل عادة أهل السودان فى ذلك الوقت، وهو أن يرث ابن بنت السلطان الملك ، أن يسيطروا على زعامة القبائل ومن ثم قوى نفوذهم حتى عم أرض المعدن[٣] . يؤكد المسعودى أن صاحب المعدن فى عام ٩٤٣ م كان بشر بن مروان بن اسحاق ، وكان يركب فى ثلاثة آلاف رجل من ربيعة وأحلافها وثلاثين ألفاً من الحدارية وهم مسلمون من سائر البجة[٤] . واستطاع أحد أحفاد بشر هذا ويدعى أبو المكارم هبة الله أن يساعد الفاطميين فى إلقاء القبض على ثائر أموى يسمى أبو ركوة ، فخلع عليه الخليفة الحاكم بالله لقب كنز الدولة[٥] . ومن ذلك الحين صار لقباً تتوارثه الأسرة فاشتهرت ببنى الكنز . وكان هذا اللقب تأكيداً وتأييداً لخدمات الأسرة التى امتد نفوذها على أرض المعدن وشمالى المريس : ومنذ ذلك الحين أصبح بنو الكنز قوة عربية محلية لها وزنها .

---

(١) المقريزى : المقفى ج ٤ ، ص ١٦٤ — ١٦٧ .

(٢) اليعقوبى : كتاب البلدان ص ٣٣٣ — ٣٣٥ .

(٣) Yusuf Fadl Hasan, *op. cit.*, p. 141.

(٤) المسعودى : نفس المصدر ، ج ٣ ص ٣٣ — ٣٤ .

(٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ليدن ، ١٨٦٢ ، ج ٩ ، ١٣٩ ، ١٤٣ ؛ المقريزى : البيان ، ص ٤٦ .

وبمرور الزمن بدأ إنتاج المناجم يقل شيئاً فشيئاً حتى توقف تماماً فى أواسط القرن الرابع عشر الميلادى ، بعد أن غطتها الرمال . ولعل السبب فى تدهورها يرجع أولا لخوف أصحابها من هجمات البجة والإعراب ، ثانياً كان الإنتاج لا يغطى النفقات ومن ثم أخذ العاملون فى أرض المعدن يبحثون عن نشاط آخر ، متجهين إلى الداخل[١] .

و تقف الهجرة العربية فى بلاد البجة على أرض المعدن ، بل توغلت جنوباً . فقد وجدت آثار مستعمرة عربية عاشت لأكثر من قرن (بين ٨٢٥ — ٩٤١م) ، فى خور بنت على بعد سبعين ميلا شمال شرق محطة هيا . ومن المرجح أن سكانها كانوا يعملون بتربية الإبل والإتجار فيها[٢] : ولقد لعبت هذه الإبل دوراً هاماً فى نقل الحجاج . والبضائع بين الصعيد وموانى البحر الأحمر وفى أرض المعدن .

* * *

منذ فجر التاريخ ظل البحر الأحمر أحد طريقين تجاريين هامين يربطان الشرق بحوض البحر الأبيض المتوسط . وفى العصر الإسلامى نشأت على ساحله السودانى ثلاثة موانىء ، وهى باضع ، عيذاب وسواكن ، ساهمت كل منها بدرجة متفاوتة فى اتساع نطاق التجارة والهجرة العربية . أما باضع التى ورد ذكرها عام ٦٣٧ واندثرت فى القرن الحادى عشر ، فقد كانت مركزاً تجارياً هاماً لمنطقة البحر الأحمر ولكنها لم تلعب دوراً كبيراً فى التجارة العالمية وسرعان ما طغى عليها نشاط عيذاب الذى عززه الفاطميون[٣] .

كانت الرغبة فى السيطرة على التجارة الشرقية التى تسير على الطريق الثانى ، أى طريق الخليج الفارسى ، بغداد ، ثم البحر الأبيض المتوسط جزءاً من معركة الفاطميون ضد أعدائهم العباسيين . ومما شجعهم فى نقل هذه التجارة صلاتهم الحسنة

---

(١) Yusuf Fadl Hasan, *op cit.*, p. 143.

(٢) G.E.R. Sanders and T.R.H. Owen : "Notes on ancient villages in Khor Nubt and Khor Omek", *Sudan Notes and Records*, XXXII, (1951) pp, 326-31 ; H. Glidden, Khor Nubt tombstones, *Kush*, II, (1954), pp. 63-5.

(٣) Yusuf Fadl Hasan, *op. cit.*, pp. 149-152.

مع اليمن . فلما جاء الفاطميون إلى الحكم كانت ميناء القلزم مسئولة عن إرسال الحبوب إلى الحجاز ، وبعد سيطرة الفاطميين على التجارة الشرقية وجدوا أنها لا تصلح كميناء لذلك الغرض . والسبب فى ذلك أن كثرة الشعاب المرجانية ، والرياح الموسمية تعوق سير الملاحة التى تتوقف تماماً فى الليل . فوجد الفاطميون فى ميناء عيذاب العميقة ضآلتهم ، فهى أقرب إلى اليمن من القلزم ، ومن ثم قصر طول الرحلة بحراً[١] وفوق ذلك لا تبعد كثيراً عن جدة ، ميناء الحجاز .

حتى ذلك التاريخ كانت معظم قوافل الحجاج من مصر والمغرب تسافر عن طريق صحراء سيناء ولكن نسبة للمجاعات وسنوات الشدة التى بدأت فى سنة ١٠٦٧ أيام الخليفة المستنصر والتى أدت إلى خراب ذلك الطريق انتقل الحجيج إلى طريق عيذاب ، وتأكيد بقاء ذلك الطريق بعدقدوم الصليبيين وازدياد نشاطهم بالقرب من سيناء . وظل طريق عيذاب طريق الحجيج الرئيسى لفترة قرنين انتهت سنة ١٢٦٨[٢] . وفى نهاية القرن الثانى عشر أصبحت عيذاب من أهم الموانى فى العالم الإسلامى ، فكانت ملتقى للسفن التجارية من الهند ، واليمن ، وشرق أفريقيا ، وجدة ومنها تخرج القوافل تحت إشراف الضمان والحمالين من القبائل العربية وقد ورد ذكر أسماء بعضها مثل تميم وبلى[٣] .

وبعد أن تخلص المماليك من بقايا الممالك الصليبية انتقلت معظم قوافل الحجاج إلى سيناء وظلت القوافل التجارية تواصل نشاطها دون توقف ، ولكن بمرور الزمن قل الأمن فى تلك الجهة . ففى سنة ١٢٧٢ م هاجم الملك داؤد ملك النوبة عيذاب[٤] . ثم كثرت الاختلافات بين القبائل العربية : ففى سنة ١٢٨١ تحاربت رفاعة مع جهينة مما اضطر السلطان للتدخل[٥] . وفى عام ١٣١٥ هاجم الأعراب قافلة يمانية تحمل هدايا للسلطان محمد قلاوون ، فأمر السلطان بمعاقبة المعتدين .

---

(١) Ibid., pp. 152-156.

(٢) المقريزى : الخطط ، ج ٣ ، ص ٢٩٩ ـ ٣٠٠ .

(٣) ابن جبير : رحلة ابن جبير ، ليدن ، ١٩٠٧ ، ص ٦٥ ـ ٧٣ .

(٤) مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد والدر الفريد فى ما بعد تاريخ ابن العميد ، باريس ، ١٩١٩ ، ج ٢ ، ص ٢٢١ (١ و ٣٧٥) .

(٥) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، بيروت ، ١٩٣٦ ، ج ٧ ، ص ٢٢٦ .

وخرجت حملة مملوكية مكونة من خمسمائة جندى ؛ فسارت إلى عيذاب ، فسواكن ، فجبل كسلا ثم تابعت نهر عطبرة حتى التقت بنهر النيل وعادت إلى القاهرة بعد أن أمضت ستة أشهر دون أن تحقق شيئاً[١] . قد نتساءل عن الأسباب التى دفعت هؤلاء العربان بمهاجمة القوافل التجارية . كان هذا الهجوم موجهاً أساساً ضد المماليك وقد تركزت هذه الهجمات فى الصعيد كما سنرى. ولا شك أن كثرة الثورات، والاضطرابات أثرت على سلامة القوافل . وفى آخر الأمر ولأسباب لا محل لذكرها (ولكن بموافقة السلطات الحاكمة) انتقلت التجارة الشرقية إلى جدة . فقلت أهمية عيذاب[٢]. وانتهت عظمة الميناء السودانى العربى سنة ١٤٢٦ على المرجح ، حين خربها السلطان برسباى انتقاماً من سكانها الذين هاجموا قافلة مصرية فى طريقها لمكة[٣] .

ويتوقف التعدين ، وانتقال طريق قوافل الحجاج ، وتدهور عيذاب واضطراب قوافل التجارة الشرقية ، توقف النشاط الاقتصادى الذى اعتمد عليه كثير من العرب فاضطرت أغلبيتهم للسير إلى داخل السودان ، إلا جزءاً بسيطاً ذهب إلى سواكن .

ورد أول ذكر لسواكن سنة ٩٤٥[٤] وقد استفادت سواكن كثيراً من تدهور باضع أولا وعيذاب ثانياً : إلا أنها لم ترق لمكانة الثانية ، وفائدتها الكبرى أنها كانت ذات صلة وثيقة بالحجاز كما كانت تربطها طرق كثيرة بالداخل[٤] . وكان سلطانها عند زيارة ابن بطوطة لها سنة ١٣٣٢ الشريف زيد بن أبى نمى الذى ورث السلطنة عن أخواله البجة ، وكان جيشه مكوناً من البجة ، وجهينة وبنى كاهل[٥] . وقد أورد السخاوى أسماء بعض التجار العرب الذين عملوا فى جزيرة سواكن فى القرن الخامس عشر[٦] .

---

(١) النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، مخطوط مصور ، دار الكتب المصرية . معارف عامة رقم ٥٤٩ ، القاهرة ، ج ٣٠ ، ص ٩٧ — ٩٨ .

(٢) Yusuf Fadl Hasan, *op. cit.*, pp. 172-175.

(٣) Ibid., pp. 175-6 ; Les Africanus, (al-Hasan b. Leo Muhammad) *The history and the description of Africa*, Hakluyt Society, London, 1958, III, p. 226.

(٤) الهمدانى (محمد بن أحمد) : صفة جزيرة العرب ، ليدن ، ١٨٨٤ ، ج ١ ص ٤٠ ، ١٣٣ .

(٥) المقريزى : الخطط ، ج ٣ ، ص ١٦٠ — ١٦٣ .

(٦) ابن بطوطة نفس المصدر، ج ٢ ، ص ١٦٠ — ١٦٣ .

(٧) السخاوى : الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع ، القاهرة ، ١٩٣٤ ، ج ٤ ، ص ١٤٠ ، ٢٣٤ ، ج ٥ ، ص ٢٤٠ ، ج ٦ ، ص ١٤٩ ، ج ١٠ ، ص ١٥٠ .

كل هذه المظاهر لنشاط العرب الاقتصادى كانت بمثابة المراحل الإعدادية التى مهدت الطرق لهجرة العرب وانتشار ثقافتهم . فكل عامل من العوامل الاقتصادية المختلفة ساعد بطريقته الخاصة فى فتح البلاد للنفوذ العربى وشجع على الهجرة : هذه الهجرة أصبحت حقيقة ملموسة بعد تدخل المماليك الإيجابى فى سياسة بلاد النوبة المسيحية ، ونتيجة ضغطهم على الإعراب فى مصر .

بالرغم من أن التعدين ، وقوافل الحج ، والتجارة الشرقية قد فتحت أبواب رزق كثيرة للعرب المستائين من الحياة فى مصر إلا أن الصلة بين حكام مصر والعرب كانت فى تدهور مستمر فلما آل الأمر إلى الفاطميين حاولوا استرضاء العرب ، خاصة قريش ، حتى يكسبوا تأييدهم ، فرحبوا ببنى عمر ، وبنى الزبير ، وبنى طلحة وبنى جعفر الصادق وأسكنوهم فى الأشمونى فى بلاد الصعيد ، فاشتهرت تلك الدار باسم بلاد قريش وكان يسكن تلك الديار فى بادىء الأمر قوم من جهينة وبل اضطرتهم العساكر الفاطمية للنزوح نحو أعلى الصعيد[١] . وشجع الفاطميون هجرة بنى سليم وحلفائهم لمصر لأسباب أخرى فما أن حط هؤلاء البدو الرحال حتى بدأوا فى مضايقة الفلاحين ومهاجمة القوافل فاستحسن الفاطميون نقلهم لشمال أفريقية . فهاجرت أعداد كبيرة من بنى سليم وبنى هلال إلى برقة ولكن البقية آثرت البقاء وانتشرت حتى صحراء عيذاب[٢] . وبالرغم من هذه المعاملة العادلة ظل العرب يثورون بغير سبب واضح . فتتبع الوزير بدر الجمالى قبائل قيس ، فزارة ، سليم ، ثعلبة ، جهينة ، والجعافرة وعمل السيف فيها ، وطرد منها جماعة لبرقة وهرب الآخرون[٣] . ولم يكتف بذلك بل هاجم بنى الكنز الذين كافأهم الحاكم من قبله ، وقتل زعيمهم . ويبدو أنه قصد أن يضع حداً لمحاولاتهم لإنشاء إمارة عربية على حدود مصر الجنوبية[٤] .

فلما تسلم الأيوبيون مقاليد الحكم ظلت الصلة فاترة بين الطرفين . والملاحظ أن العرب لم يغفروا لحكام مصر الاستمرار فى إبعادهم عن السلطة والجيش . فقد

---

(١) المقريزى : البيان ، ص ١٢١ — ١٢٢ .

(٢) ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٦ ، ص ٢٨ ، ٣٠ ، ١٤٢ ؛ ابن الأثير : نفس المصدر ، ج ٩ ، ص ٤٠ ؛ المقريزى : البيان ، ص ٢٨ .

(٣) ابن ميسر : نفس المصدر ، ص ٢٤ — ٢٥ .

(٤) ساويروس : نفس المصدر ، ج ٤ ، مجلد ٣ ، ص ٢٠١ — ٢٠٥ .

اعتمد الأيوبيون على الكرد والديلم والترك ولم يستفيدوا من العرب إلا نادراً . ومن ثم عبر العرب عن استيائهم كلما أحسوا تراخياً وضعفاً فى الدولة ، وقد ثاروا خمس ثورات تركزت كلها فى الصعيد . فلما تدهورت الدولة الأيوبية وأصابها التفكك تمكن الجندى التركى أو المماليك ، من السيطرة على مصر وسوريا . وكان هذا التغيير بداية لصراع عنيف بين أغلبية العرب الذين ظلوا على بداوتهم أو بين البداوة والحضر : فقد اعتاد هؤلاء كلما واتتهم الفرصة الهجوم على المجموعات المستقرة دون اعتبار لقانون أو رادع . وزاد حنقهم لما رأوا هؤلاء الرقيق من الترك يسيطرون على دست الحكم ويضيقون الخناق عليهم . وقد صدق حدس الإعراب : فقد ظل المماليك يمثلون دور القوة المحتلة التى لم تتعاطف مع المواطنين كثيراً ، بل ظل كثير منهم يجهلون العربية : ولم تكن نظرة المماليك قائمة على اعتراض عنصرى بل تشابه استياء سكان المدن والمجموعات المستقرة من البدو[١] .

عند بداية العهد المملوكى وفى سنة ١٢٥٣ بالتحديد ثارت معظم القبائل العربية ببلاد الصعيد والوجه البحرى ومنعت الخراج . وأعلن قائدها الشريف حصن الدين ثعلب ابن نجم الدين الجعفرى : « نحن أصحاب البلاد . . . ونحن أحق بالملك من المماليك وتوافد مؤيدوه من كل صوب حتى بلغوا اثنى عشر ألف فارس وتجاوز عدة الآخرين الإحصاء » . واستطاع السلطان آيبك أن يسيطر على الموقف بعد أن هزم الثوار وأسر حصن الدين[٢] .

واستمر الصراع بين المماليك والأعراب أو العربان كما يسميهم مؤرخو تلك الفترة دون أن يهدأ . فكلما فشلت الدولة فى قمع تلك الثورات تشجع العربان فى عصيانها ، فإذا أصابتهم الهزيمة سلكوا طريق من سبقوهم نحو البلاد ذات المراعى الخضراء بعيدين عن سيطرة الحكومة . وظل هذا النسق من الصراع يقل شيئاً فشيئاً حتى نهاية القرن الخامس عشر ؛ ولأستدل لكم على ما أقول اكتفى بأمثلة ثلاث :

فى سنة ١٢٩٠ م قتل المماليك جماعة من العربان فى طوخ وخرقوا آخرين

---

(١) Yusuf Fadl Hasan, *op. cit*, pp. 200-202.

(٢) المقريزى : كتاب السلوك فى معرفة دول الملوك . القاهرة ، ١٩٣٤ ، ج ١ ، ص ٣٨٦ ، البيان ، ص ٩ — ١٠ ، ٣٨ .

وأخذوا رهائن كثيرة ممن تبقى بعد أن سبوا منهم ألف جمل ، ومائتى حصان وعدداً كبيراً من الأغنام وكميات من الأسلحة[١] . ولما زاد الضغط المغولى على سوريا فرض المماليك ضرائب كثيرة قابلها الأعراب بالتحدى سنة ١٣٠١ وعاثوا فساداً . فقتل المماليك عدداً من القادة وجبوا ما يساوى مليون ونصف مليون درهم عدا ألف بعير وألف شاة . وصادروا كل الأسلحة وكل الخيل . وقابل العربان هذه الجباية بعدم الانصياع للقوانين والتجأوا لقطع الطرق وفرضوا الضرائب على السكان الآخرين . فحاصر المماليك العربان وحاول هؤلاء الإفلات من قبضة الجند المحاصر ولكن دون جدوى ، وأسر المماليك من بينهم ستة ألاف ممن يفلحون أرضهم . وأخيراً عاد إلى البلاد شىء من الهدوء والاستقرار[٢] .

ثم اشتبكت قبائل عرك مع الدولة سنة ١٣٤٨ واستطاع المماليك هزيمتهم سنة ١٣٥١ بمساعدة بنى هلال . ولكن محمد بن واصل الأحدب شيخ عرك واصل النضال حتى عظم أمره فى الصعيد . وفى سنة ١٣٥٣ سافر الأمير سيف الدين شيخو فى جيش كبير لمحاربته فطار الخبر وانتشر الهلع بين الأعراب ، فقرر البعض الهجرة لبلاد النوبة ، ونوى آخرون الحج بينما آثرت البقية الاختفاء . . . وانضمت إلى الأحدب عرب منفلوط ، والمراغة ، وبنى كلب وجهينة حتى تجاوزت فرسانه عشرة آلاف فارس تحمل السلاح سوى الرحالة المشاة فإنها لا تعد ولا تحصى لكثرتها . وما أن اشتبك الجيشان حتى انهزم الأحدب إلى أسوان . وهنالك انتصر الأحدب فى أوائل الأمر فلما تكامل الجيش المملوكى كانت الغلبة لشيخو[٣] . وتتبع المماليك العربان الذين هربوا ، مسيرة سبعة أيام حتى دخلوا أطراف بلاد الزنج — أى السودان[٤] . ولما انتهت هذه الحملة لم يبق بدوى واحد بصعيد مصر على حد تعبير المقريزى[٥] .

---

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ، سنوات ٦٥٦ — ٧٠٩ هـ ، مخطوط ، المتحف البريطانى رقم Add 23325 لندن ، ج ٢ ، ص ٢٢٣ أ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٣١ أ ؛ المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٩١٤ ، ٩٢٠ — ٩٢١ ، ٩٢٢ .

(٣) المقريزى : السلوك (مخطوط مصور ، دار الكتب المصرية ، تاريخ رقم ٤٥٥ ، القاهرة) ج ٦ ، ص ٦١٩ ب ، ج ٧ ، ص ١٠ — ١٢ ب .

(٤) ابن أياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، بولاق ، ١٨٩٨ ، ج ١ ، ص ٢٢٠ .

(٥) المقريزى : السلوك ، ج ٧ ، ص ١٢ ب .

وفى عام ١٣٩٥ غزا بنو الكنز والأحامدة أسوان بعد أن قتلوا واليها . وأمر السلطان بمعاقبة الجناة وطلب من شيخ هوارة ، القبيلة البربرية ، أن تساعد العسكر المملوكى ولكن الجيش لم يهتد لهم على أثر(١) . ومن الملاحظ أن السلطان الظاهر برقوق أمر فى سنة ١٣٨٠ بنقل جماعة من هوارة من الوجه البحرى وإسكانها فى الصعيد وبعد سنوات قليلة أصبحوا رؤساء على كل الصعيد ومن فيه من العرب(٢) .

يتبين لنا مما مضى أن سياسة المماليك لم تترك للعرب فرصة غير الهروب لبلاد النوبة . وفوق ذلك فان المجاعات المتكررة وموجات الطاعون التى لازمت العهد المملوكى الأول شجعت كثيراً من العرب بالهروب إلى بلاد النوبة خوف الموت . وقد حدثت أول هجرة لهذا السبب سنة ١٣٢٤(٣) . وقد كان لهذه الوباء والمجاعات أثر سيء على الحالة الاقتصادية العامة وقد صاحب كل ذلك زيادة فى الضرائب لمواجهة زحف المغول . ثم إن كثيراً من الأراضى الزراعية أقطعت للمماليك فأصبح من يفلحها أسوأ حالا مما كانوا عليه من قبل(٤) . كل هذه الأسباب شجعت العرب على الهجرة للسودان ، كما صاحب كثير منهم الحملات المملوكية التى غزت بلاد النوبة .

ذكرت فى مطلع حديثى أن معاهدة البقط ظلت تنظم العلاقات بين مصر وبلاد النوبة زمناً طويلا وقد تدهورت هذه الصلات فى حالات قليلة أدت إلى مناوشات على الحدود أو حرب محدودة . تمت أول محاولة جادة لغزو بلاد النوبة فى عهد السلطان صلاح الدين الأيوبى حيث توغل الأيوبيون حتى أبريم وكانوا يؤملون اتخاذ بلاد النوبة مملكة لهم إذا ساءت الحال فى مصر (على رواية ابن الأثير . لكنهم زهدوا

---

(١) ابن الفرات : نفس المصدر ، ج ٩ ، ص ٤٤٠ — ٤٤١ .

(٢) المقريزى : البيان ، ص ٥٨ .

(٣) العينى : تاريخ البدر فى أوصاف أهل العصر ، مخطوط ، المتحف البريطانى ، رقم Add 22360 لندن ، ص ١٥ ب .

(٤) Ibn Hajjar al 'Asqalani : 'Inba' al-ghumr bi-anba' al-Umr' ed. with an introduction by Hasan Habashi, Ph. D. Thesis, London, 1954, I, 151.

فى تلك المغامرة لما تأكد لهم فقر بلاد النوبة[١] . أما المحاولة الثانية فقد تمت فى عهد المماليك .

ذكرت كيف أدت ثورات العربان فى صعيد مصر والصحراء الشرقية إلى اضطراب سير القوافل التجارية فاضطر السلطان بيبرس لتأمين تلك الطرق ومد نفوذه حتى ميناء سواكن[٢] وأحس داود ملك النوبة أن المماليك قد قصدوا فرض حصار على الممالك المسيحية وحرمانها من الاتصال بالعالم الخارجى عن طريق البحر الأحمر . وعبر عن استيائه هذا بغزو الصعيد وتخريب عيذاب سنة ١٢٧٢[٣] . وبينما كان السلطان بيبرس يعد العدة لتأديب ملك النوبة وصله أمير نوبى يسمى شكندة وادعى أن الملك داود قد اغتصب العرش منه[٤] . فتبنى السلطان قضيته وبعثه مع الجيش الغازى سنة ١٢٧٦ .

كانت مهمة الجيش المملوكى ومن تبعه من عربان الوجه القبلى غزو بلاد النوبة ووضع شكنده على عرشه . فلما سارت الحملة واجهتها مقاومة عنيفة طوال رحلتها حتى التقت بالملك داود بالقرب من دنقلا وهزمته . وبعد أن تابع المماليك فلول جيش داود لثلاثة أيام عادوا إلى دنقلا وتوجوا شكنده ملكا على النوبة . وقبل شكنده الشروط التى أملاها الجيش الفاتح . وأهمها أن يصبح شكنده تابعاً للسلطان ونائباً عنه فى حكم بلاد النوبة ، وأن يسلم نصف دخل بلاده للسلطان وأن يدفع كل بالغ دينارين جزية إذا ما بقى على النصرانية ، وتعهد سكان النوبة بطاعة ملكهم ما طاع سلطان مصر . وتنص المعاهدة على أن يمنع العربان من البقاء فى بلاد النوبة وأن يرسل الملك من يجده منهم لسلطان مصر . هذه المادة تصور مدى الهلع الذى أصاب

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ، القاهرة ، ١٨٢٠ ، ج ١ ، ص ٢٠٩ ؛ ابن الأثير : نفس المصدر ، ج ١١ ، ص ٢٥٤ .

(٢) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر ، تحقيق عبد العزيز خويطر رسالة خطية ، جامعة لندن ، ١٩٦٠ ، ج ١ ، ص ٢٨٥ — ٢٨٦ ؛ شافع بن على بن عباس كتاب المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية (مخطوط دار الكتب الوطنية ، باريس رقم ١٦٥٦ Arabe) ، ص ٨٣ أ — ٨٣ ب .

(٣) مفضل بن أبى الفضائل : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٢١١ .

(٤) ابن الفرات : نفس المصدر ، ج ٧ ، ص ٤٥ — ٤٦ .

المماليك من العربان . ومن الجدير بالذكر أن الجيش عاد إلى مصر يحمل عدداً من الأمراء كرهائن استغلوا فى الوقت المناسب للتدخل فى شئون النوبة[١] .

وبإيجاز فإن هذه الحملة حققت فتح بلاد النوبة « فتحاً حقيقياً » .

أولاً — لم تعد بلاد النوبة مستقلة ، منذ ذلك التاريخ . ثانياً — أعطت هذه الخلافات بين أفراد الأسرة الحاكمة الفرص للتدخل فى شئون النوبة من وقت لآخر ومن ثم كانت سياسة المماليك ترمى إلى جعل بلاد النوبة دولة تابعة . وقد ساعدت هذه السياسة على انتشار الإسلام والإسراع بالاستعراب الذى بدأ منذ زمن طويل فى بلاد المريس كما ساعدت على دخول كثير من العربان مع الجيوش الفاتحة فاستقروا فى بلاد النوبة على غير ما أراد بيبرس ، وتزوجوا من أهلها ومن أسرها الحاكمة حتى ملكوا زمام الأمر فى أوائل القرن الرابع عشر .

فلما مات شكندة سنة ١٢٧٧ اختلف الأمراء النوبيون فيمن يخلفه ، وأخيراً أقر المماليك شمامون . ولكنه سرعان ما استبد بالأمر ورفض دفع الجزية ، فأرسل السلطان منصور قلاوون حملة كبيرة سنة ١٢٨٧ لخلعه[٢] ، وقد اشترك فيها عدا الجند الرسمى ، كثير من العربان مثل أولاد أبى بكر ، وأولاد عمر ، وأولاد شريف وأولاد شيبان ، وأولاد الكنز وبنو هلال . فلما هزم شمامون عند دنقلة تقهقر نحو الجنوب . وعاد الجيش المملوكى لمصر بعد أن توج ملكا جديداً ، فما أن غاب الجيش المملوكى وراء الأفق حتى ظهر شمامون واسترد ملكه . وتدخل السلطان مرة ثانية وأرسل جيشاً كبيراً اشترك فيه أربعون ألفاً من عربان الوجه القبلى والبحرى . وقد نشك فى صحة هذا العدد ولكنه مهما كان ، فهو دليل على أن من اشترك من الأعراب كان كبيراً جداً . وانتصر المماليك وتكررت مراوغة شمامون مرة ثانية وثالثة وأخيراً نجح فى البقاء على العرش برضاء سلاطين مصر إلى نهاية القرن الثالث عشر

---

(١) ابن الفرات : نفس المصدر ج ٧ ص ٤٦ — ٤٧ ؛ مفضل بن أبى الفضائل : نفس المصدر ، ج ٢ ص ٢٣٤ — ٢٣٥ ؛ النويرى : نفس المصدر ج ٢٨ ورقة ٢٥٩ .

(٢) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور « تشريف » القاهرة ١٩٦١ ص ١٥٤ ، ١٤٣ — ١٤٤ .

تقريباً [١] . وفى سنة ١٣٠٤ أرسل المماليك ملكاً آخر على بلاد النوبة وخلفه أخاه كرنبس عام ١٣١١[٢] ؛ فما أن توطد مركزه حتى استقل بالأمر وأرسل المماليك جيشاً آخر يتبعه حفيد الملك داود الأمير سيف الدين عبد الله برشمبو الذى اعتنق الإسلام أثناء وجوده فى القاهرة . فلما سمع الملك كرنبس بذلك أسرع بارسال ابن أخته كنز الدولة نصر ، حفيد بنى الكنز ، للأبواب السلطانية قائلا : « إن كان يقصد مولانا السلطان بأن يولى البلاد لمسلم فهذا مسلم وهو ابن اختى والملك ينقل إليه من بعدى » فرفض السلطان ذلك الطلب خوفاً من ازدياد نفوذ بنى الكنز وأنصارهم . وتوج سيف الدين عبد الله برشمبو أول ملك مسلم على بلاد النوبة المسيحية عام ١٣١٧[٣] ، وأرخ لهذا الحدث العظيم باتخاذ كنيسة دنقلا مسجداً . ولكن عهده لم يطل ، إذ ثار عليه النوبيون غالباً بإيعاز من كنز الدولة . وبعد حروب طويلة بين المماليك والقوى المحلية تم الأمر لكنز الدولة سنة ١٣٢٣ . وقد لخص النويرى وهو ممن عاصروا تلك الأحداث تلك الظروف قائلا « فاجتمع أهل النوبة على كنز الدولة وملكوه عليهم فملك البلاد حينئذ ، ولبس تاج الملك ، واشتغل بالمملكة وضم إليه العرب واستعان بهم على من ناوأه»[٤] .

منذ ذلك التاريخ قل ذكر بلاد النوبة فى المصادر العربية إلا من إشارات عابرة ففى سنة ١٣٦٥ ذكر أن ابن أخت الملك هاجم خاله بمساعدة بنى جعد وأخيراً انتقل الملك إلى الدو شمال دنقلا . وحاول المماليك عبثاً استرداد نفوذهم جنوب الدو . فقد سقطت تلك المنطقة فى يد بنى عكرمة وظلت فى حالة من الفوضى لانعدام حكومة مركزية قوية[٥] . وصفوة القول فإنه بسقوط مملكة النوبة المسيحية فى القرن الرابع عشر قد انهار السد المنيع الذى كان يحول دون دخول العرب السودان من طريق وادى النيل — وقد صادف هذا الحدث قمة الصراع بين العربان والمماليك فى مصر .

---

(١) ابن الفرات : نفس المصدر ، جـ ٨ ص ٥٢ — ٥٣ ، ٦٩ جـ ٨ ص ٨٣ — ٨٤ ، ٩١ ، ٩٢ ؛ ابن عبد الظاهر : تشريف ص ١٥٤ — ١٥٥ .

(٢) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٧ .

(٣) النويرى : نفس المصدر جـ ٣ ورقات ٩٥ — ٩٦ .

(٤) النويرى : نفس المصدر جـ ٣ ورقة ٩٦ .

(٥) المقريزى : السلوك جـ ٧ ورقة ٤٨ .

فتدفق العرب نحو الجنوب دون رقيب واندفعت أعداد أخرى عن طريق الصحراء الشرقية وقد وجدوا أن كثيراً من إخوانهم قد سبقوهم منذ قرون خلت إلى تلك الديار (إما من مصر أو عبر البحر الأحمر) حيث استقروا وتزوجوا فى البجه ونشروا الإسلام ، واستمر من لحقوا بهم فى ترحالهم حتى بلغوا أرض البطانة ثم الجزيرة ، وعبر بعضهم النيل إلى كردفان . كما تابع آخرون شاطئ النيل الغربى فوادى المقدم أو وادى الملك حتى كردفان . كما تابع آخرون شاطئ النيل الغربى فوادى المقدم أو وادى الملك حتى كردفان ودارفور . فلما كثر عدد من المهاجرين قضوا على مملكة علوة فى ظروف لا نعرف عنها الكثير بعد . وظلت الأغلبية من هؤلاء العرب على بداوتهم ولكن جزءاً منهم اختلط بالمجموعات المستقرة فتزوجوا منها واعطوا القوم لغتهم ودينهم وجزءاً من تقاليدهم وبدأوا بذلك سفراً جديداً فى تاريخ هذه البلاد لم تكتب نهايته بعد .

دكتور يوسف فضل حسن